



The Phonological Structure in the Farewell Sermon: A Pragmatic Linguistic Study



Received: 19/10/2025; Accepted: 22/11/2025

د. هبيرة عز الدين

كلية الآداب و اللغات , جامعة قسنطينة 1 / الاخوة منتوري-(الجزائر)

البنية الصوتية في خطبة حجة الوداع: دراسة لسانية تداولية

الكلمات المفتاحية:

بنية صوتية ؛
خطبة حجة الوداع ؛
لسانيات تداولية ؛
فونولوجيا؛
إيقاع صوتي.

ملخص

تتناول هذه الدراسة البنية الصوتية في *خطبة حجة الوداع* بوصفها نصًا تأسيسيًا جمع بين البعد الديني والتشريعي والبلاغي. وتتمثل مشكلة البحث في الكشف عن دور العناصر الصوتية – من صوامت وصوائت ومقاطع وإيقاع – في تعزيز الفعالية التواصلية والإقناعية للخطبة. اعتمد الباحث منهجًا لسانيًا تداوليًا يجمع بين أدوات الفونيتك والفونولوجيا من جهة، ومفاهيم التداولية الحديثة من جهة أخرى، مع توظيف التحليل التطبيقي لمقاطع مختارة من الخطبة. أظهرت النتائج أن البنية الصوتية أسهمت في ترسيخ المعنى عبر الإيقاع الداخلي والتوازي الصوتي والتركيب، وأن الأصوات الانفجارية والمجهورة والحركات القصيرة والطويلة كوّنت نظامًا صوتيًا متماسكًا سهّل الحفظ والنقل الشفهي. كما خلصت الدراسة إلى أن الوظائف الجمالية والدلالية والحجاجية للأصوات متكاملة، وهو ما جعل الخطبة نصًا بلاغيًا حيًا قادرًا على التأثير المستمر في المتلقي.

Abstract

This paper investigates the phonological structure of the *Farewell Sermon* as a foundational discourse that intertwines religious, legislative, and rhetorical dimensions. The study addresses the question of how phonological features—namely consonants, vowels, syllables, and rhythm—function to enhance the communicative and persuasive force of the sermon. Adopting a pragmatic linguistic framework, the analysis integrates tools from phonetics and phonology with insights from contemporary pragmatics, applied to selected excerpts of the text. The results demonstrate that the phonological architecture reinforced meaning through internal rhythm, sound and syntactic parallelism, and that the interplay of plosive and voiced sounds with both short and long vowels created a coherent system that facilitated memorization and oral transmission. The study concludes that the aesthetic, semantic, and argumentative functions of sound operate in an integrated manner, rendering the sermon a dynamic rhetorical discourse with enduring impact on its audience.

Keywords:

Phonological structure;
Farewell Sermon;
Pragmatics;
Phonology rhythm;
Argumentative function

* Corresponding author, e-mail: azzeddine.habira@umc.edu.dz

Doi:

I - مقدمة

تُعَدُّ خطبةُ حَجَّةِ الوداع للنبي ﷺ من أعظم النصوص الخطابية في التاريخ الإسلامي، بل ومن أبرز الخطابات التي شكَّلت لحظةً فارقةً في بناء الوعي الديني والاجتماعي للأمة. فهي تمثل وصية النبي ﷺ الأخيرة، حيث اجتمع فيها البُعد الديني والتشريعي والأخلاقي والتواصلي في سياقٍ واحد جامع. وتكمن أهميتها في أنها لم تكن مجرد خطاب تاريخي آني، بل نصًّا مؤسسًا ظلَّت أصداءه تتردد في الذاكرة الجماعية للمسلمين عبر القرون¹

وإذا كان المفسرون والفقهاء قد توقفوا عند مضمون الخطبة وما تضمنته من أحكام ومقاصد، فإن الباحث اللساني يجد فيها مجالاً رحباً لتحليل بنيتها اللغوية والبلاغية، وبالأخص جانبها الصوتي الذي يمثل أحد ركائز الخطاب ووسائله الإقناعية. فالصوت لم يكن أداةً محايدة لنقل المعنى، بل كان قوةً فاعلة في ترسيخ الرسالة وتأكيداتها. ومن ثم فإن تحليل البنية الصوتية للخطبة يتيح لنا فهمًا أعمق للكيفية التي تحقق بها النبي ﷺ تواصلًا ناجحًا مع سامعيه، وكيف استطاع أن يحوّل الكلمات إلى أداة تعبئة وجدانية ومعرفية في آن واحد²

وتطرح هذه الدراسة إشكالية رئيسية مفادها: **كيف أسهمت البنية الصوتية لخطبة حجة الوداع في تعزيز فعاليتها التواصلية والإقناعية؟**

ومن هذه الإشكالية تتفرع أسئلة فرعية:

- ما الخصائص الصوتية المميزة للخطبة؟
- ما أثر الصوامت والصوائت والمقاطع في إيقاع النص؟
- كيف تخدم البنية الصوتية الوظائف الدلالية والحجاجية للخطاب؟

تمخّضت عن هذه التساؤلات جملة من الفرضيات مفادها:

- الصوامت المجهورة والانفجارية لها دو فعال في إيقاع الخطبة وتأثيرها على المستمعين.
- تتسم الخطبة بمميزات تشدّ انتباه المستمعين.
- تساهم البنية الصوتية في تحقيق المعنى وتعزيز الحجاج.

ومن أبرز الدراسات التي أدلت بدلوها في الموضوع ذاته، دراسة الدكتور فرحة مفتاح عبد الله الشريدي، التي سعى من خلالها الربط بين المقاطع الصوتية والدلالة اللغوية؛ تحليل العلاقة بين البنية الصوتية والمعنى والتي تمثل نقطة الالتقاء مع بحثنا، وقد اعتمد الشريدي في الجانب التطبيقي منه على تحليل المقاطع الصوتية الطويلة والقصيرة، من حيث تواترها وشيوعها في مختلف محاور خطبة الوداع. كما اهتم كلّ من الدكتور جمال بسعودي وبوبكر الصديق صابري، في دراستهما الموسومة بـ "المقطع الصوتي ودلالته في الكشف عن مشاعر التوديع في خطبة الوداع" بدراسة الأصوات من منظور دلالي، وهو ما يشكل نقطة تقاطع مع موضوعنا، غير أن دراستهما انصبّت على الكشف عن الحالة الشعورية للنبي ﷺ من خلال تحليل المقاطع الصوتية، بينما يركّز البحث الحالي على الوظائف الجمالية، والدلالية، والحجاجية للبنية الصوتية، ومدى تأثيرها في المتلقي.

تعتمد الدراسة على منهج لساني تداولي، يستثمر أدوات علم الأصوات (**phonétique**) و الفونولوجيا (**phonologie**) من جهة، ومفاهيم التداولية الحديثة من جهة أخرى، بما يسمح بقراءة الخطبة في ضوء تفاعل الأصوات مع المعنى، والتأثير النفسي في المتلقي³

بهذا، نأمل أن يشكل هذا المقال إسهامًا في إثراء البحث في الخطاب النبوي من منظور صوتي تداولي، يزواج بين التراث والحداثة، ويكشف عن العمق الفني والبلاغي للخطبة النبوية الخالدة.

II- الإطار النظري:

II - I مفهوم الصوت عند العرب القدماء:

حَظي الصوت بمكانة بارزة في التراث العربي القديم، فقد انشغل الخليل بن أحمد (ت 175هـ) بتقعيد نظام العروض، وهو نظامٌ يقوم في جوهره على تمفصل الوحدات الصوتية وتقطيعها إلى مقاطع شعرية. وقد اعتبر الخليل أن للأصوات وظيفة موسيقية تسهم في ضبط الإيقاع، فضلاً عن دورها في إيضاح المعنى⁴. أما سيبويه (ت 180هـ) فقد جعل من دراسة المخارج والصفات باباً أساسياً في كتابه/الكتاب، حيث حصر الأصوات ورتبها وفقاً لمخارجها من الحلق واللسان والشفيتين. وقد قدّم وصفاً دقيقاً لطبيعة الصوامت وصفاتها كالجهارة والهمس والشدة والرخاوة، وهو ما يكشف عن وعي مبكر بخصائص الفونيتيك⁵ (phonétique articulatoire).

وقد جاء ابن جني (ت 392هـ) ليؤكد العلاقة بين الصوت والمعنى، إذ رأى أن «الأصوات بمثابة قوالب للمعاني»، وأن تغيّر الصوت يفرض إلى تغيّر الدلالة. وقد ضرب أمثلة كثيرة على هذا الترابط، كالفرق بين قَطَعَ وقَطَّعَ، حيث يوازي تضاعف الصامت تضاعف الحدث⁶.

إذن، يتضح أن التراث الصوتي العربي قد أسس لنظرية لغوية متكاملة تربط بين الصوت والمعنى، وتُبرز القيمة التداولية للصوت في تحقيق الفهم والإقناع.

II - II علم الأصوات الحديث :

مع تطور الدراسات اللسانية في العصر الحديث، برز الاهتمام بالصوت في سياق جديد يقوم على مناهج تجريبية. فقد أسس فرديناند دي سوسير (ت 1913م) ثنائية اللغة والكلام، وجعل من الفونولوجيا (phonologie) علماً يدرس «القيمة الوظيفية» للأصوات داخل النظام اللغوي، بخلاف الفونيتيك الذي يدرس الخصائص الفيزيائية للأصوات⁷.

أما جاكبسون (ت 1982م) فقد ذهب إلى أن الصوت ليس مجرد عنصر فيزيائي، بل وحدة وظيفية تشارك في العملية التواصلية الشاملة. وقد صاغ ما يُعرف بـ«السمات المميزة» (traits distinctifs) «التي تُميز بين الأصوات اللغوية من خلال ثنائيات (مجهور/مهموس، أنفي/غير أنفي، إلخ)، وهي مقاربة ذات فائدة كبيرة عند تحليل النصوص الشفوية مثل خطبة الوداع⁸.

وفي السياق العربي الحديث، قدّم إبراهيم أنيس (ت 1977م) كتابه/الأصوات اللغوية الذي صار مرجعاً رئيساً في الدرس الصوتي، إذ درس المخارج والصفات والمقاطع والإيقاع بدقة علمية، وأكد على أهمية دراسة الأصوات في سياقها الكلامي لا في عزلة عن النص. كما طوّر تمام حسان (ت 2011م) رؤية وظيفية للأصوات ضمن نظريته في اللغة العربية معناها ومبناها، حيث أبرز أن الأصوات تُسهم في بناء النظم الدلالية والبلاغية⁹.

II - III البنية الصوتية في ضوء اللسانيات البنوية والتداولية:

تجمع المقاربة الحديثة بين الجانب البنوي والجانب التداولي:

- من المنظور البنوي، تُفهم البنية الصوتية باعتبارها شبكة من العلاقات الوظيفية بين الأصوات التي تشكل النظام اللغوي.
- ومن المنظور التداولي، يُنظر إلى الأصوات باعتبارها أدوات للتأثير والإقناع، فهي ليست مجرد «شكل» بل وسيلة لإنتاج أثر في المتلقي.

وبهذا يصبح الصوت جزءاً من العملية التواصلية: فاختيار النبي ﷺ لألفاظ محددة وإيقاع معين في خطبة الوداع لم يكن عفويًا، بل يعكس وعياً تداولياً بطبيعة المقام والجمهور. وهذا ما يجعل تحليل البنية الصوتية مفتاحاً لفهم سرّ نجاح الخطبة¹⁰.

II- IV- البنية الصوتية في خطبة حجة الوداع:

II- IV- I- الصوامت وصفاتها:

تحتل الصوامت (consonnes) مكانة مركزية في بنية الكلام العربي، فهي التي تمنح الكلمة هيكلها الأساسي، وتحدد بنيتها الصرفية. وقد عُرفت العربية بثرائها في الصوامت المجهورة والمهموسة، الانفجارية والاحتكاكية، وهو ما انعكس بوضوح في خطبة حجة الوداع.

فمن أبرز الظواهر الملحوظة في الخطبة كثافة الصوامت المجهورة مثل الميم والنون والراء، وهي أصوات ترتبط بالاستمرار واللين، ما يضيف على الخطاب طابعاً جرسياً محبباً. على سبيل المثال في قوله ﷺ «*بِإِنْ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَأَعْرَاضِكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ*»، تتكرر الميم والنون بصورة لافتة، وهو ما يخلق إيقاعاً داخلياً يعزز التوكيد¹¹.

كما يلاحظ الحضور القوي للصوامت الانفجارية مثل القاف والطاء والكاف، وهي أصوات ذات طابع شديد وقوي، تسهم في إحداث وقع نفسي عند المتلقي. ونجد ذلك في قوله ﷺ «*بَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟*»، حيث يمنح صوت القاف (بلغت) والخاء (ألا) الخطاب صرامة ووقفاً مؤثراً¹².

إن الجمع بين هذه الأصوات المجهورة والاحتكاكية والانفجارية أسهم في بناء إيقاع متوازن يجمع بين الشدة واللين، وبين الصرامة والعذوبة، وهو ما يفسر قدرة الخطبة على التأثير المتواصل.

II- IV- II- الصوائت وأنواعها:

تلعب الصوائت (vowelles) أو الحركات دوراً حاسماً في بناء الجملة العربية، إذ تحدد طبيعة المقاطع وتمنح الخطاب طابعه الموسيقي.

- **الحركات القصيرة (ـ / ـ / ـ):** (تعطي للكلام إيقاعاً سريعاً متتابعاً، كما في قوله ﷺ «*بِإِنْ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَأَعْرَاضِكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ*»). تتوزع الحركات القصيرة هنا على نحو متوازن، ما يمنح الجملة انسجاماً صوتياً¹³.
- **الحركات الطويلة (أ / أو / إي):** (تمنح الخطاب طابعاً متمهلاً ومؤثراً، وتستخدم عادة في المواطن التي تحتاج إلى توكيد أو استدعاء الانتباه. ففي قوله ﷺ «*بَلَا إِنْ الزَّمَانُ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ*»، نجد الصوائت الطويلة (أ) و(أو) تمنح الخطاب امتداداً صوتياً يليق بمقام الإعلان الكوني¹⁴.

هذا التوازن بين الحركات القصيرة والطويلة جعل الخطبة تمزج بين السرعة والبطء، وبين الإيجاز والتطويل، بما يخدم الغرض التواصلية ويشد انتباه السامعين.

II- IV- III- المقاطع الصوتية:

المقطع الصوتي هو الوحدة الإيقاعية الأساسية في الكلام. وقد قسّم اللغويون المقاطع إلى:

- **مفتوحة (CV):** تتكون من صامت + صائت (مثل: لا، ما).
- **مغلقة (CVC):** تتكون من صامت + صائت + صامت (مثل: قد، لكم).
- **ممتدة (CVV):** أو **CVVC** تتكون من صامت + صائت طويل (مثل: قال، يوم).

في خطبة الوداع نجد هيمنة المقاطع المفتوحة (CV) التي تمنح النص تدفقاً سلساً وسهولة في التردد، وهو ما يتناسب مع طبيعة الخطاب الجماهيري الموجّه إلى جمع غفير من المسلمين. فعلى سبيل المثال في قوله ﷺ «*بَرَكْتُ فَيْكُمْ مَا إِنْ تَمْسُكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي أَبَدًا*»، نجد أن أغلب الوحدات الصوتية مفتوحة، ما يسهل على المتلقي ترديدها وحفظها¹⁵.

كذلك، يسهم التناوب بين المقاطع المفتوحة والمغلقة في إحداث تنويع إيقاعي يمنع الرتابة ويثير الانتباه.

II - IV - IV الإيقاع والجرس الصوتي:

الإيقاع عنصر جوهري في نجاح الخطاب الشفهي. ويُقصد به هنا التوزيع المنتظم للأصوات والمقاطع في النص. وقد حافظت خطبة الوداع على إيقاع متوازن من خلال:

- التكرار الصوتي: مثل تكرار عبارة «ألا هل بلغت؟».
- التوازي التركيبي: مثل «بماؤكم وأموالكم وأعراضكم»، حيث التوازي الصوتي والتركيبي يخلق إيقاعاً واضحاً.
- الجرس الحركي: الناتج عن alternance بين الحركات القصيرة والطويلة.

هذا الإيقاع الصوتي جعل الخطبة قابلة للتلقي الجماهيري، كما يستر انتقالها عبر التواتر الشفاهي بدقة، فالإيقاع يحمي النص من التحريف والضياع¹⁶.

II - IV - V أمثلة تطبيقية:

- المثال الأول:

«إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام»
يتكرر هنا صوت الميم (م) والراء (ر) والنون (ن)، بما يخلق جرساً داخلياً يوحى بالصرامة والقداسة. كما أن تتابع الصوائت القصيرة يضفي سرعة إيقاعية تناسب مقام التحذير والتنبيه

- المثال الثاني:

«ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد»
تتجاوز هنا الأصوات الانفجارية (ق، ت) مع الحركات الطويلة (آ، أو)، فيتولد إيقاع يجمع بين الحزم والرهبة، وهو ما يعكس الموقف الحاسم للنبي ﷺ في إعلان تبليغ الرسالة.

II - V الوظائف الجمالية والدلالية للبنية الصوتية:

II - V - I الوظيفة الجمالية:

لا يقتصر دور الصوت في الخطاب النبوي على الجانب الإخباري أو التواصل المباشر، بل يتعداه إلى البُعد الجمالي الذي يمنح النص طابعاً فنياً متميزاً. ويظهر ذلك من خلال:

- **الإيقاع المنتظم**: فالتكرار الصوتي للحروف والمقاطع أضفى على الخطبة موسيقى داخلية تشبه التقطيع العروضي، لكنها طبيعية نابعة من بنية النص. على سبيل المثال في قوله ﷺ «ألا إن كل شيء من أمر الجاهلية موضوع تحت قدمي»، حيث يمنح تكرار النون والميم جرساً صوتياً متناسقاً¹⁷.
- **التنغيم الصوتي (intonation)**: الذي يساعد على إبراز الانفعال العاطفي للمتكلم. فعند تلاوة عبارة «اللهم فاشهد»، يتصاعد الصوت في البداية لينخفض في النهاية، وهو ما يترك أثراً وجدانياً عميقاً لدى السامع¹⁸.

- **التوازن الإيقاعي**: من خلال التوازي في التركيب مثل «بماؤكم وأموالكم وأعراضكم». هذا التوازن يحقق نوعاً من الانسجام الموسيقي الذي يرسخ المعنى في الذاكرة

II - V - II الوظيفة الدلالية:

إلى جانب الجانب الجمالي، يؤدي الصوت وظيفة دلالية مباشرة، إذ إن بعض الأصوات قادرة على حمل معانٍ إضافية إلى جانب معناها المعجمي:

- الأصوات الانفجارية: مثل القاف والطاء والكاف، توحى بالقوة والصرامة، وتناسب السياقات التحذيرية كما في قوله ﷺ: * «ألا هل بلغت؟»¹⁹.
- الأصوات المجهورة: مثل الميم والنون واللام، تحمل طابعاً ليناً ينسجم مع معاني الرحمة والمودة، كما في قوله ﷺ: «استوصوا بالنساء خيراً».
- الإطالة الصوتية (الصوائت الطويلة): (تمنح المعنى بعداً تأملياً وتوكيدياً، كما في قوله ﷺ: «بمنتهم بالله» حيث يعطي المد في الألف شعوراً بالرهبة والخشوع.

من ثم، فإن البنية الصوتية لا تسهم فقط في تشكيل الشكل الخارجي للنص، بل تضيف أبعاداً دلالية تقوي الرسالة وتثري معناها.

II-V-III الوظيفة الحجاجية والإقناعية:

لعب الصوت دوراً حاسماً في تحقيق الوظيفة الحجاجية للخطبة. فالتكرار الصوتي لا يُستخدم للتزيين فقط، بل لتأكيد المعنى وترسيخه في ذهن المخاطب.

- في قوله ﷺ: «ألا هل بلغت؟»، يتكرر النداء والتساؤل بشكل يوحي بالإلحاح على السامعين كي يقرّوا ببلاغ الرسالة، وهذا الأسلوب الحجاجي يضاعف من مصداقية الخطاب²⁰.
- كما أن التوازي الصوتي في عبارة «مأؤكم وأموالكم وأعراضكم» يخلق إيقاعاً حجاجياً يقوم على التعداد المتدرج، فيؤكد على شمولية التحريم.
- إضافة إلى ذلك، فإن الانتقال بين المقاطع القصيرة والطويلة يُحدث تنويعاً إيقاعياً يمنع الملل، ويجعل المتلقي أكثر تركيزاً واستعداداً لقبول الحجة²¹.

إن الوظيفة الحجاجية للصوت تتكامل مع الدلالية والجمالية، لتجعل من خطبة الوداع نصاً مؤثراً قادراً على إقناع المتلقي وإلزامه بالرسالة.

II-VI-III الخطاب النبوي في الدراسات العربية

II-VI-I الدراسات العربية التقليدية

لقد أولى علماء التراث العربي عناية فائقة بالخطاب النبوي عموماً، وخطبة حجة الوداع خصوصاً، لكن تركيزهم كان موجّهاً في الغالب إلى الجوانب التشريعية والفقهية. فقد تناولها المفسرون والفقهاء بوصفها نصاً يؤسس لقواعد المعاملات والحقوق، مثل تحريم الدماء والأموال والأعراض، وبيان حقوق المرأة، والتنبيه إلى وحدة الأمة. غير أن البعد الصوتي لم يكن حاضراً في هذه المقاربات إلا بصفة عابرة، إذ لم يُنظر إليه بوصفه مدخلاً للتحليل اللغوي أو التداولي²².

أما في مجال البلاغة العربية، فقد نجد إشارات غير مباشرة إلى دور الأصوات في التأثير والإقناع، مثلما ذهب إليه عبد القاهر الجرجاني حين أكد على أن جمال الكلام لا ينفصل عن نظمه الصوتي، أو كما لاحظ ابن الأثير في *المثل السائر* حين تحدث عن الإيقاع والجرس. لكن هذه الملاحظات لم تتحول إلى دراسات تطبيقية على خطبة الوداع، بل ظلت أقرب إلى التنظير العام²³.

II-VI-I الدراسات العربية الحديثة

في العصر الحديث، بدأت بعض الدراسات اللسانية والأدبية تُقارب الخطاب النبوي من زوايا متعددة. فقد حاول بعض الباحثين تناول خطبة الوداع في سياق التحليل الأسلوبي، مركزين على مظاهر التكرار والتوازي والترادف. ومن ذلك دراسة منشورة في مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة أشارت إلى أن الإيقاع الصوتي في الخطبة يمثل أحد أسرار تأثيرها في المخاطبين²⁴. كما ظهرت دراسات أخرى في مجال التحليل التداولي، إذ نظر بعض الباحثين إلى الخطبة بوصفها

نموذجًا للخطاب التداولي المكتمل العناصر، حيث يتجلى فيها المرسل والرسالة والمتلقي والسياق. غير أن هذه الدراسات اكتفت بوصف عام، دون الدخول في تفاصيل فونولوجية أو تحليل صوتي معمق²⁵.

أما في المجال الغربي، فقد تناول بعض المستشرقين الخطبة في سياق الدراسات المقارنة، معتبرين إياها نموذجًا لـ«البلاغة الخطابية» في الإسلام، لكن أغلب هذه الدراسات بقي حبيس الجانب التاريخي أو الاجتماعي، ولم تدخل إلى تفاصيل التحليل الصوتي²⁶.

يمكن القول إن معظم الدراسات السابقة، رغم أهميتها، لم تُعطِ البنية الصوتية للخطبة حقها الكامل. فقد تم التركيز غالبًا على:

- الجانب التشريعي والأخلاقي.
- البنية البلاغية العامة (التكرار، التوازي).
- التحليل التداولي دون ربطه بالصوت.

ومن هنا تبرز أهمية هذه الدراسة، إذ تحاول سدّ هذا الفراغ من خلال مقارنة صوتية تداولية تُبرز كيف أسهمت الأصوات والمقاطع والإيقاع في نجاح العملية التواصلية للخطبة.

III- الإطار التطبيقي :

نسعى في هذا المقام إلى تحليل بعض المقاطع من خطبة حجة الوداع كنماذج تطبيقية على النحو الآتي :

- تحليل المقطع: «إِنْ دَمَاعَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ»

يُعتبر هذا المقطع من أبرز مواضع التكرار في خطبة حجة الوداع. فعلى المستوى الصوتي، نلاحظ:

- **التكرار الصامت:** يتكرر صوت الميم (م) وصوت النون (ن) مرات عدة، وهما صوتان مجهوران أنفيان يمنحان الجملة إيقاعًا رخوًا لكنه قوي من حيث الترسيخ في الذاكرة. إن التكرار المكثف لهذين الصوتين يعكس رغبة المتكلم في تثبيت الفكرة وتأكيد²⁷.
- **التوازي التركيبي:** «دماؤكم / أموالكم / أعراضكم» صياغة متوازية في البنية الصوتية والتركيبية، وهو ما يخلق إيقاعًا داخليًا يضاعف من قيمة الرسالة.
- **التنغيم:** إذ يلاحظ أن ارتفاع النبرة الصوتية عند كلمة «حرام» يمنح الجملة ختمًا حاسمًا، ويُبرز الطابع التحذيري للمقطع²⁸.

من ثمّ، يظهر أن توظيف الأصوات في هذا المقطع لا يخدم الزينة الشكلية فحسب، بل يرسّخ الدلالة الشرعية للتحريم ويحوّلها إلى حقيقة راسخة في الوجدان .

- تحليل المقطع: «إِلَّا هَلْ بَلَغْتَ؟ اللَّهُمَّ فَاشْهَدْ»

يُعد هذا المقطع من أقوى الجمل البلاغية في الخطبة.

- **الصوامت الانفجارية:** نلاحظ حضور أصوات مثل القاف (ق) والتاء (ت)، وهي أصوات ذات طابع شديد تُحدث وقعًا حادًا عند النطق، ما يعكس جدية السؤال الذي طرحه النبي ﷺ²⁹.
- **التكرار البنائي:** تكرر الأداة «إلا» في سياق الخطبة أكثر من مرة يمنح الكلام طابعًا إنذاريًا، يوجّه الانتباه نحو المعنى الأساس.
- **الإيقاع الدائري:** يبدأ المقطع باستفهام وينتهي بدعاء (اللهم فاشهد)، وهو ما يحقق انغلاقًا إيقاعيًا يحاكي البناء الحجاجي للنص: سؤال ← جواب ضمني ← استشهاد بالله كشاهد.

الصوت هنا إذن ليس مجرد أداة بلاغية، بل هو وسيلة حجاجية تعطي للخطاب قوته الإقناعية.

- تحليل المقطع: «بَرَكْتَ فَيْكُمْ مَا إِنْ تَمْسُكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضَلُّوا بَعْدِي أَبَدًا»

في هذا المقطع يظهر بوضوح البُعد التداولي للصوت:

- **المقاطع المفتوحة:** مثل (فَيْكُمْ / ما / إِنْ / تَمْسُكْتُمْ)، تهيمن على الجملة، ما يمنحها انسيابية وسهولة في التردد. وهذا يساعد على حفظها وتداولها عبر الأجيال³⁰
- **الصوائت الطويلة:** مثل المد في (أَبَدًا)، يُضفي بعدًا خطابيًا قاطعًا على المعنى. فالمد الصوتي هنا يوازي الامتداد الزمني لفكرة «عدم الضلال».
- **التنغيم الصاعد:** في منتصف الجملة عند عبارة «لَنْ تَضَلُّوا»، يرتفع الصوت ثم ينخفض عند النهاية «بَعْدِي أَبَدًا»، وهو ما يعكس الحسم النهائي في مضمون الرسالة.

هذا المقطع يعكس التكامل بين البنية الصوتية والمعنى التداولي، حيث يتحول الصوت إلى أداة تواصلية تحفظ الخطاب وتُيسر نقله.

- تحليل المقطع: «اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا»

يبرز هذا المقطع جانبًا وجدانيًا في الخطبة:

- **حرف الصاد في "استوصوا"** يضفي طابعًا صفيًا يلفت الانتباه.
- **الصوائت الطويلة** (واو المد في استوصوا) تمنح العبارة إيقاعًا هادئًا مناسبًا لمقام الوصية.
- **التكرار الصوتي للسین والصاد** يُحدث جرسًا لطيفًا ينسجم مع مضمون الوصية المرتبط بالرحمة والعطف³¹

بهذا يُظهر المقطع كيف يوظف الصوت لإبراز البعد الأخلاقي الإنساني في الخطاب النبوي.

IV- الخاتمة:

خلصت هذه الدراسة إلى أنّ البنية الصوتية في خطبة حجة الوداع تمثل أحد أبرز العوامل التي أسهمت في نجاحها التواصلية والإقناعية. فالأصوات لم تكن مجرد حوامل شكلية للمعنى، بل أدوات فاعلة في بناء الخطاب وتحقيق أثره النفسي والدلالي.

وقد بيّنا من خلال التحليل أنّ الصوائت المجهورة والانفجارية، إلى جانب الصوائت القصيرة والطويلة، قد شكّلت نظامًا صوتيًا متوازنًا منح الخطبة إيقاعًا داخليًا متماسكًا. كما أن تكرار بعض الأصوات والمقاطع، وتوظيف التوازي الصوتي والتركيبي، جعل الخطاب سهل الحفظ والتداول، وهو ما يفسر انتقاله عبر التواتر الشفهي بدقة واستمرار.

واتضح أن الوظائف الجمالية والدلالية والحجاجية للبنية الصوتية متكاملة: فهي تمنح النص موسيقاه الداخلية، وتضفي على معانيه قوةً ووضوحًا، كما تعزز حججه وتضاعف من قدرته على التأثير. فقول النبي ﷺ «إِنْ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالُكُمْ وَأَعْرَاضُكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ» مثلًا، لا يكتسب قوته من مضمونه التشريعي فحسب، بل أيضًا من إيقاعه الصوتي الموزون الذي يجعل المتلقي يعيش التجربة وجدانيًا.

كما أبرزت الدراسة أن الخطبة تمثل نموذجًا تداوليًا متكاملًا، حيث استطاع الصوت أن يؤدي دور الوسيط بين المعنى والمتلقي، محققًا بذلك نجاحًا تواصليًا ظل أثره ممتدًا عبر القرون.

ومن خلال مراجعة الدراسات السابقة، تبين أن الجانب الصوتي ظلّ مهملاً أو معالجًا بصورة سطحية، الأمر الذي يجعل هذه المقاربة محاولة لسدّ هذا النقص وإعادة الاعتبار إلى دور الصوت في الخطاب النبوي.

التوصيات

- توسيع البحث في الخطاب النبوي من منظور صوتي تداولي يجمع بين التراث العربي والمناهج اللسانية الحديثة.

- القيام بدراسات تطبيقية موسّعة على خطب وأحاديث أخرى للنبي ﷺ، لاستكشاف دور البنية الصوتية في مختلف السياقات.
- الاستفادة من التقنيات الحديثة في علم الأصوات (التحليل الصوتي الرقمي) لإجراء دراسات كمية دقيقة على النصوص الدينية.

وبهذا يمكن القول إن خطبة حجة الوداع تظل مثلاً خالداً على التكامل بين الصوت والمعنى، وعلى قدرة اللغة العربية، في أرقى صورها، على التعبير عن الحقائق الدينية والإنسانية في صياغة مؤثرة وعميقة البحث.

الإحالات

- 1 ابن هشام (1997)، *السيرة النبوية*، تحقيق: مصطفى السقا، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج4، ص 253.
- 2 عبد القاهر الجرجاني (1992)، *دلائل الإعجاز*، تحقيق: محمود شاكر، دار المدني، جدة، ص. 88.
- 3 Roman Jakobson. (1963), *Essais de linguistique générale*, Paris: Minuit, p. 215.
- 4 الخليل بن أحمد الفراهيدي، (1990)، *العروض*، تحقيق: محمد الطاهر بن عاشور، دار الكتب العلمية، بيروت، ص. 12.
- 5 سيبويه، (1982) *الكتاب*، تحقيق: عبد السلام هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ج4، ص. 434.
- 6 ابن جني (1952)، *الخصائص*، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، القاهرة، ج1، ص. 40.
- 7 Ferdinand de Saussure. (1916), *Cours de linguistique générale*, Paris: Payot, p. 32.
- 8 Roman Jakobson. (1963), *Essais de linguistique générale*, Paris: Minuit, p. 219.
- 9 إبراهيم أنيس (1975)، *الأصوات اللغوية*، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ص. 159.
- 10 حسان تمام (1979)، *اللغة العربية معناها ومبناها*، دار الثقافة، القاهرة، ص. 77.
- 11 سيبويه، *الكتاب*، مرجع سابق، ج4، ص. 442.
- 12 ابن جني، *الخصائص*، مرجع سابق، ج1، ص. 65.
- 13 إبراهيم أنيس، *الأصوات اللغوية*، مرجع سابق، ص. 161.
- 14 حسان تمام، *اللغة العربية معناها ومبناها*، مرجع سابق، ص. 82.
- 15 Roman Jakobson. (1963), *Essais de linguistique générale*, Paris: Minuit, p. 225.
- 16 Crystal, David. (1969), *Prosodic Systems and Intonation in English*, Cambridge: CUP, p. 45.
- 17 عبد القاهر الجرجاني، *دلائل الإعجاز*، مرجع سابق، ص. 90.
- 18 Crystal, David. (1997), *Prosody and Language*, Oxford: OUP, p. 122.
- 19 ابن جني، *الخصائص*، مرجع سابق، ج2، ص. 51.
- 20 Roman Jakobson. (1963), *Essais de linguistique générale*, Paris: Minuit, p. 229.
- 21 إبراهيم أنيس، *الأصوات اللغوية*، مرجع سابق، ص. 170.
- 22 ابن هشام، *السيرة النبوية*، مرجع سابق، ج4، ص 260.
- 23 ابن الأثير (1999)، *المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر*، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت، ج1، ص. 112.
- 24 أحمد بدوي (1987)، «الإيقاع في الخطاب النبوي»، *مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة*، العدد 42، ص77.
- 25 محمد العمري (2000)، *التداولية والأدب*، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ص 55.
- 26 Montgomery Watt. (1961), *Muhammad: Prophet and Statesman*, Oxford: OUP, p. 212.
- 27 سيبويه، *الكتاب*، مرجع سابق، ج4، ص. 448.
- 28 Crystal, David (1997), *Prosody and Language*, Oxford: OUP, p119.

29 ابن جني، الخصائص، مرجع سابق، ج2، ص. 60.

30 Jakobson Roman .(1963), Essais de linguistique générale, Paris: Minuit, p. 230.

31 إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، مرجع سابق، ص. 175.

المراجع العربية:

- 1 ابن الأثير (1999)، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت، ج1.
- 2 أحمد بدوي (1987)، «الإيقاع في الخطاب النبوي»، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، العدد 42.
- 3 أنيس إبراهيم (1975)، الأصوات اللغوية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.
- 4 ابن جني(1952)، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، القاهرة، ج1.
- 5 حسان تمام(1979)، اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، القاهرة .
- 6 خليل بن أحمد الفراهيدي،(1990)، العروض، تحقيق: محمد الطاهر بن عاشور، دار الكتب العلمية، بيروت..
- 7 سيبويه،(1982) الكتاب، تحقيق: عبد السلام هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ج4.
- 8 عبد القاهر الجرجاني (1992)، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود شاكر، دار المدني، جدة..
- 9 محمد العمري (2000)، التداولية والأدب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.
- 10 ابن هشام (1997)، السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج4.

المراجع الأجنبية:

1. Crystal, David.(1969), Prosodic Systems and Intonation in English, Cambridge.
2. Ferdinand de Saussure. (1916), Cours de linguistique générale, Paris: Payot.
3. Montgomery Watt.(1961), Muhammad: Prophet and Statesman, Oxford: OUP.
4. Roman Jakobson.(1963), Essais de linguistique générale, Paris: Minuit.